الحرمان الحسى والسلوك العدوانى

من المعلوم أن كل ما يرد إلينا من تنبيهات للسلوك من العالم الخارجى أو الداخلى، نحسه وندركه ليصبح خبرة لنا نتعلمها ونفكر بها وتوجه سلوكنا فهو يأتى إلينا عن طريق أعضاء الحس. ولم يخطىء الشاعر الإنجليزى «ميلتون» حين أطلق على الحواس بأنها أبواب المعرفة الخمسة فهى حقا مداخل إلى عقل الإنسان. ولا يقتصر إحساسنا وإدراكنا على الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم والتذوق واللمس. بل إن هناك إحساسات باطنة وإحساسات حشوية تستجيب لها مستقبلات كامنة فى أعضاء باطنية داخلية كالمعدة والأمعاء والكبد والقلب والمثانة وأعضاء التناسل. وسواء كانت هذه أعضاء حس حقيقية أم لا، فالمؤكد أنها تستجيب للتنبيهات وتسجل أحاسيس جسيمة تؤثر فى السلوك، فليس هناك شك فى إحساسنا بالجوع والعطش والتعب والإثارة الجنسية التى لها مصدرها فى تلك الأعضاء الباطنية، مثال ذلك أن: انقباض جدران المعدة يثير فينا الإحساس بالجوع، والأمواج العكسية فى انقباضات جدران المعدة الهضمة يثير فينا مشاعر القىء والغثيان، كما أن جفاف الحلق يثير الإحساس بالعطش، وضغط السائل المنوى على جدران الخصيتين يثير فينا الرغبة فى تصريف الطاقة الجنسية، وضغط البول على جدران المثانة يثير الحاجة للتبول، كما أن ضغط البراز على جدران الأمعاء الغليظة يثير فينا الحاجة للإخراج. هذا، وقد يحدث إدراك خاطىء لبعض المثيرات الخارجية ويعرف ذلك بعملية الخداع الحسى ، ويعزى الإدراك الخاطىء للتفسير الخاطىء لقوانين الطبيعة مثل: ظاهرة انكسار العصى فى الماء أو إلى الخلط النفسى وهو من اضطرابات الإحساس والإدراك التى يعانى منها بعض الأفراد. ويمكن القول بأن هناك علاقة وطيدة بين الحرمان الحسى الذاتى وبين آلية الإنكار النفسى التى تلازم الفرد دون إحساس أو شعور منه. والإنكار ما هو إلا ميكانيزم لا شعورى وحيلة دفاعية نفسية يلجأ إليها الشخص فى المواقف التى تهدده بهدف خفض القلق وإنكار إمكانية استمرار الموقف المهدد والانسحاب من الموقف ، وتوهم أن ما يتمناه ضرب من الحقيقة والواقع

د. عزت عبدالعظيم الطويل
أستاذ علم النفس
بكلية الآداب بجامعة بنها

ومن المعلوم أن الإنكار يؤدى بالشخص إلى تجاهل قصدى أو متعمد لحادث معين أو قضية متداولة، وبرغم ذلك التجاهل فإنه لا يمنعه عن التعبير عن دوافعه ومشاعره، فيأخذ الإنكار صور لغوية تتمثل فى قوله فى موقف مهدد «هذا غير ممكن.. إنه مستحيل» وقد يأخذ الإنكار شكل أو نمط تكرار قهرى لإبعاد الفكرة أو الرغبة عن الشعور.

هذا وقد يؤدى الإنكار إلى فقدان الاحتكاك بالواقع أو عدم الإيمان بالحدث الراهن كما يحدث فى حالة الفرد الذى ينكر تماما بأن صديقه الذى حكم عليه بالحبس المؤبد، يعيش حرا طليقا بالرغم من كل الشواهد والأسانيد التى تؤكد إيداعه في غياهب السجن. وفى هذا المجال نرى أن هناك بعضا من السمات السيكولوجية المشتركة بين الإنكار كميكانيزم لا شعورى، وبين أكاذيب جماعة ضالة جاحدة معاندة ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾. ومعنى ذلك أنهم لا يمكن أن ينتفعوا بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية والإيمان ، ولكنهم عاندوا وابتعدوا وجحدوا بآيات الله وضلوا طريق الفوز والفلاح والرشاد. وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى أنهم: «صم بكم عمى فهم لا يعقلون» أولئك كالأنعام» أى أنهم لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يقيتها فى ظاهر الحياة الدنيا ففى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال الحق تبارك وتعالى فى هؤلاء: «بل هم أضل» من الدواب ولهذا فإن من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أفضل منه. ولهذا قال تعالى: أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» وفيصل القول إن هذه الشريحة الاجتماعية من الغافلين الضالين فى أى مجتمع تتأثر – إلى حد كبير – بالبيئة الاجتماعية التى تعيش فيها، فالبيئة الاجتماعية للفرد بمثابة «التربة الزراعية» ، فإذا كانت هذه التربة خصبة حانية، كان النبات أخضر يانعا نديا، أما إذا كانت التربة صخرية قاسية، كان النبات أصفر ذابلا ضاويا. وقد أشار الله تعالى إلى هذه القضية المهمة فى قوله: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ» ومعنى ذلك أن القلب الطيب ينبت فيه الخير والحب والأمان كالأرض الطيبة العامرة التى تنبت بالأزهار والرياجين، بينما القلب الخبيث ينبت فيه الشر والكراهية والغل مثل الأرض الخبيثة التى تنبت الأشواك والهشيم والحشائش الضارة. فنبات القلب الطيب نبات ربانى، ونبات القلب الخبيث نبات شيطانى. وفرق كبير وبون شاسع بين إنسان يحمل فى ثناياه نزعة إيمانية يتخللها شعاع نورانى يهديه إلى طريق الحق والصواب، وبين إنسان عدوانى أضله الله حتى هوى فى قرار سحيق، وضاع من قدمه الطريق. إنها العدائية والعدوانية التى تدمر الإنسان، وتبدد شمل الأوطان.

والعدوان سلوك فج يسود كل

المجتمعات الإنسانية ، ويتضمن بعضا من القصد والنية لدى الفرد فى مواقف الإحباط التى تمنع وتصد إشباع دوافعه أو تعوق رغباته، فيدخل فى دوامة من الغضب والهياج وعدم الإتزان الذى يؤدى به إلى سلوك يجلب له الأذى والهلاك . ويهدف السلوك العدوانى إلى كسر حدة الألم وخفض التوتر الناتج عن الشعور بالإحباط وتدعيم إشباع الواقع المحبط وهنا يشعر الفرد بالراحة والهدوء ويعود إلى سيرته الأولى من الاسترخاء والاتزان وفى التفسير النفسى للعدوان يذهب علماء النفس الاجتماعى إلى أن تفسير العدوان لابد أن يكون من منظور المقاصد الكامنة وراء السلوك البشرى، فإذا كانت المقاصد الكامنة وراء السلوك منطوية على إلحاق الأذى المتعمد بالآخرين، والضرر المهلك للحرث والنسل، فإن ذلك يعتبر عدوانا. ويرى بعض الباحثين أن حالات الإحباط الشديد تؤدى إلى ظهور قدر معين من العدوانية الذى يعتمد على كمية المشاعر السلبية الناجمة عن حالة الإحباط أو الفشل. ولما كان الإحباط مفتاحا للغضب، والغضب بدوره يؤدى إلى العدوان، ويعتبر العدوان بمثابة «الدينامو» الذى يقوم بتوليد العنف، فإن العنف يتحول فى هذه المنظومة السيكودينامية إلى سلوكيات مضطربة، ومسالك دامية تتبلور فى نهاية المطاف لتصل إلى الانتقام .

ومجمل القول إن الغضب غريزة فى جبلتنا البشرية، كما أنه يمثل قوامنا الأساسى والجوهرى يستحيل الفرار منه، ولكن يمكن ترويضه وتوجيهه حيث إن الغريزة ديكتاتور قابل للإقناع والتفاوض. ومن ثم فإن العدوان بمشتقاته ومترادفاته، شكل من أشكال الفساد والأذى والضرر والعصيان. ويحضرنى هنا قول ابن مسعود: الفساد فى الأرض هو الكفر والعمل بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد فى الأرض». وفى هذا المجال يطالعنا قوله تعالى: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون». تصوروا الفساد بصورة الإصلاح، لما فى قلوبهم من المرض، فكانوا كمن قال الله فيهم: «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا». ولذلك رد الله عليهم ردا بليغا بتصدير الجملة بحرفى التأكيد «ألا» المنبهة و «إن» المقررة وتعريف الخبر والاستدلال بعدم الشعور، فقال: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» فانتبهوا أيها الناس، إنهم المفسدون حقا لا غيرهم ولكن لا يفطنون ولا

عفوا أيها السادة..

صحة مصر فى خطر عظيم!!

لقد ثبت أن الصحة النفسية هى أهم أسباب تقوية الجهاز المناعى للإنسان.. وهو خط الدفاع الأول للجسم ضد أى غزو ميكروبى أو فيروسى أو حتى طفيلى.. كما ثبت أن ٨٠ ٪ من أفراد الشعب المصرى يحتاجون علاجا نفسيا بدرجات متفاوتة.. ولا أعنى بذلك أن تتحول مصر إلى مستشفى للأمراض النفسية والعصبية.. ولكننى أعنى أن كل اهتمام الحكومة يجب أن يتجه صوب العلاج الجماعى للشعب المصرى من أمراضه النفسية التى تؤدى إلى انهيار الجهاز المناعى لديه.. ما يجعله فريسة سهلة لكافة الأمراض والجراثيم والفيروسات والطفيليات.. التى تحتاج إلى أدوية غالية لا يستطيع المواطن متوسط الدخل أن يتحمل ثمنها.. وكذلك الحاجة إلى مزيد من المستشفيات وغرف العناية المركزة.. التى تحتاج بلايين الجنيهات التى تنوء بها ميزانية أغنى الدول..

ولعل أهم وأخطر هذه الأمراض النفسية هو الإدمان.. وهو ما أزعم أنه المرض الرئيسى المسبب لكل ما نعانيه فى مصر حكومة وشعبا..

وإننى إذ أتحدث عن الإدمان فإننى لا أعنى حصريا (إدمان المخدرات) الذى هو العرض الظاهر والرئيسى الذى يصرخ منه المجتمع حين تتجلى أعراضه فى تصرفات وجرائم المدمنين.. بل أعنى كل أنواع الإدمان الذى هو صناعة شيطانية يصدرها إلينا الأعداء..

إن الإنسان فى بعض الدول الكبرى يخضع تطوعا أو قسرا لأبحاث عملية وطبية رهيبة.. ويتم تداول نتائج هذه الأبحاث فى سرية تامة.. تهدف هذه الأبحاث باختصار إلى تحقيق السيطرة على الشعوب الأخرى دون إراقة دماء جنودهم.. وأهم وسائلهم لتحقيق ذلك هو نشر الإدمان..

إن الإدمان لا يقتصر ـ كما قلت مسبقا ـ على إدمان المخدرات فحسب.. وإنما كما أعرفه: تعويد الإنسان على سلوك (سلبى) بحيث لا يستطيع التخلص منه دون مساعدة طبية وعلمية.. هذا الموضوع جد خطير.. يجب ألا نعتمد فى معرفتنا كنهه على الهواة من أمثالى بل على أساطين الطب النفسى فى مصر وهم كثر وعباقرة بل عالميون.. ومبدئيا أقترح أن تنشأ كليات مستقلة لهذا الفرع من الطب تدمج فيها أقسام علم النفس فى كليات الآداب مع أقسام الطب النفسى فى كليات الطب البشرى لتخرج لنا خبراء متخصصين فى العلاج النفسى الفردى والجماعى.. ولتكن الصحة النفسية الممتازة للمواطن المصرى هى الهدف الاستراتيجى الأول والأسمى لكافة مشاريع الرعاية الصحية فى مصر..

إن بعض الضواهر التالية تغتبر بكل المقاييس إما من أنواع الإدمان أو نتيجة حتمية له:

ـ إدمان ألعاب الكمبيوتر والبلاى ستيشن.

ـ المواظبة على الاستماع لبرامج التوك شو.

ـ عدم تعاون الموظف مع المواطن فى إنهاء احتياجاته والاستمتاع بتعذيبه.

ـ حالات الطلاق المتفشية.

ـ هروب الأطفال من المدارس.

الجلوس بالساعات على المقاهى ولعب الطاولة والدومينو.

ـ الجلوس بالساعات على الإنترنت.

ـ العنف اللفظى والبدنى المتفشى فى المجتمع.

ـ التكالب على السلطة دون مؤهلات.

ـ الإرهاب والتطرف الدينى.

وغيرها مما سيقوله الخبراء بل لعلى لا أبالغ إذ أقول إن بعض أنواع السرطان و أمراض نقص المناعة تعتبر أيضا من نتاج الأمراض النفسية وعلى رأسها الإدمان.

إذن فمن هنا نبدأ.. فالبدء بالعلاج النفسى الجماعى والفردى وتغيير الحالة المزاجية للمواطن سيوفر مجهودات خارقة و أموالا طائلة تنفق على علاج الأعراض ولا تعالج أسباب المرض التى اتفقنا على أنها (حالة نفسية) وقديما قالوا إن الوقاية خير من العلاج..

إن العلاج النفسى الفردى والجماعى سيؤدى تلقائيا إلى نهضة صحية وعملية وعلمية لا تقوى أى قوة على أن توقفها.. (مازلت أعيد وأكرر أننى لست متخصصا ولا خبيرا ولكن كما صنفت بعض الأمراض النفسية.. أصنف لكم أيضا كهاو أنواعا من العلاج المجانى التى لا تثقل ميزانية الدولة:

ـ مكافأة وتشجيع المتفوقين الحقيقيين..

ـ نشر الفن الراقى.

ـ التمسك بالقيم الدينية الحقيقية..

ـ الثقافة الراقية.

ـ نشر الجمال المعمارى واتساع الرقعة الخضراء في المدن.

ـ ممارسة الرياضة في الأندية ومراكز الشباب.

ـ الدفء العائلى وصلة الأرحام وتجمع الأسرة حول مائدة الطعام.

ـ نشر تاريخ وسير الشخصيات التاريخية العظيمة المصرية والأجنبية التى أثرت إيجابيا فى البشرية..

ـ رقى وإيجابية العملية التعليمية المنتجة في المدارس والجامعات.

ـ تحميل المسئولية للشعب فى حل مشكلاته واقتصار خطة الحكومة على إزالة الموانع والعقبات من طريقه.

ـ الشفافية وإعلام الشعب بكل صغيرة وكبيرة.

ـ معرفة معايير تعيين الوزراء والقيادات وتاريخهم.. وكذلك معرفة أسباب الاستغناء عن خدماتهم.

عميد شرطة: **جمال مصطفى عيسى**